UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

المديح في شعر عبد الغفَّار الأخرس

هياتم فتحي محمد إسماعيل
كلية محمد المانع للعلوم الطبية، المملكة العربية السعودية، المنطقة الشرقية، محافظة الخبر
Email: fhayatim@yahoo.com, Tel; +966509478019

مستخلص

هدفت الدراسة لدفع مسارات الدراسات الأدبية وإدراك قيمة المصنفات النقدية والأدبية في العصر الحديث إضافة للكشف عن المستوى اللغوي المستخدم في تلك الفترة من الشعر، متمثلاً في اللغة الأدبية والصورة الشعرية. استخدمت الدراسة المنهج التحليلي والمنهج الوصفي والمنهج التاريخي. توصلت الدراسة لأن الشاعر طرق معظم الأغراض الشعريَّة المعروفة، كالمديح، والرثاء، والغزل، والوصف، ورغم أنَّه كان مُقلاً في الهجاء الذي لم يتطرق إليه إلَّا من خلال قصيدتين، وبيتين من الشعر. أوصت الدراسة بالتطرق بالدراسة بالتفصيل للمديح في شعر بقية الشعراء.

كلمات مفتاحية: المديح، الشعر، المصنفات الأدبية، العصر الحديث، عبد الغفار الأخرس.

Abstract

The study aimed to advance the tracks of literary studies and realize the value of critical and literary works in the modern era, in addition to revealing the linguistic level used in that period, represented in the literary language and the poetic period. The study used the analytical approach, the descriptive approach, and the historical approach. The study concluded that the poet used most of the well-known poetic purposes, such as praise, lamentation, spinning, and description, although he was an expert in satire, which he did not address except through two poems and two verses of poetry. The study recommended a detailed study of praise in the poetry of the rest of the poets.

Keywords: Praise, Poetry, Literary works, The modern era, Abdul Ghaffar al-Akhras.

مقدمة

الشعر من أعرق فنون القول عند العربِ، وأوثقها اتصالاً بحياتهم، وأشدها تعلقاً بوجدانهم، وأصدقها تعبيراً عن ملامح شخصياتهم، وأعمقها تصويراً لمشاعرهم، ولو قسِّم التراثُ الإنساني بين الأممِ؛ لكانَ الشعرُ من نصيبِ هذهِ الأمة، وميزة من ميزاتها، وتكفي نظرةٌ واحدةٌ إلى تراثِ الأمة العربيَّةِ لتَبَيَّن تغلغلَ الشعرِ في نفوسهم، حتى غدا ضميرهم، وتاريخهم، وزادهم في محنهم. وكانَ من دواعي هذا الفن الأدبي أن تكونَ لهُ أغراضٌ عدَّة، تعبّرُ عمّا فيه من تأثيرٍ على مختلفِ جوانب الإنسان الحياتيَّة، ومدركاته في الطبيعة، وفلسفته في أمور الدنيا، ونظرته تجاه مجتمعه، وقيمه، وعاداته، وتقاليده. في هذه الدراسة تم تسليط الضوء على نتاج واحد من أولئك الشعراء الموصليين الذين برزت اسماؤهم في عالم الشعر في القرن التاسع عشر، هو الشاعر (عبد الغفار الأخرس)، والذي يعد واحداً من الشعراء المحدثين الذين طرقوا أغراضاً عدَّة، وتناولوها في شعرهم وقد أخذنا على عاتقنا أن نعرِّف بنتاج الشاعر، وفنه الأدبي في المديح، متبعين منهجاً طالما استعملته الدراسات الأدبية في تحليل نصوص الشعراء والتعريف بفنهم الأدبي ونعني به المنهج الوصفي. تهدف هذه الدراسة لتقديم دراسة منصفة وموضوعية للمديح في شعر عبد الغفّار الأخرس الذي اتّسم بجوانب فنيّة خرج فيها عن سيرورة العصر الذي ذوي فيه الشّعر العربيّ، وكاد أن ييبس عوده، وهو ما أُطلق عليه عصر الانحطاط، ومن جهةٍ أخرى التّعريف بما أنتجه الأخرس وبالمستوى الرفيع الذي بلغته القصيدة على يده. على صعيد اللغة وعذوبتها وقوة سبكها، والصّورة الفنية وطرافتها، وروعة التّجديد فيها؛ القائم على قوانين ودوافع ذاتيّة للشّاعر أو لتكوينه الثّقافي، وربط جميع هذه الأسس بفكرة النّص لديه. وتبيين طبيعة الشّكل العام لقصيدة الأخرس، حيث إنّه لم يخرج عن إسار التّقليد في الأغراض المعهودة للشّعر العربي. المديح هو ذكر محاسن المرء والثناء عليه، فهو من أقدم الفنون الأدبية ومن أوسع الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء، ابتداء من العصر الجاهلي إلى عصرنا هذا، فلم يكن ظاهرة وليدة الأمس القريب. فهو من الأغراض الشعرية التي تميَّز بها أغلب

UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

شعر عبد الغفار الأخرس، ويكاد يشكِّل معظم قصائده في الديوان إن لم يكن كلها. فهو يمدح علماء عصره ووجهاء القوم والولاة، فشعره لا يخلو من مديح رجال السلطة كي يكسب وُدَّهم وينال عطاياهم.

تعريف الشاعر وحياته

هو السيد عبد الغفَّار بن عبد الواحد بن وهب في مدينة الموصل بُعيد سنة 1220هـ- 1805م، على أرجح الأقوال[1]. وبها قضي أيام طفولته وصباه، وتعلّم مبادئ القراءة وقسطاً من كتب اللغة والأدب والفقه على بعض شيوخها، ولم تسعفنا المصادر بمعلومات عن أسرته، وشيوخه الذين درس عليهم وأخذ عنهم في الموصل. قدم بغداد أيام شبابه، وسكن الكرخ، واتصل بالعلَّامة أبي الثناء الألوسي، وواصل عليه دراسته اللغوية والأدبية حتى نال إجازته. وظهرت مواهبه الأدبية، وسطعت شاعريته في أجواء مجالس بغداد ومنتدياتها.

ولم تُبيّن لنا المصادر سبب هجرة الأخرس من الموصل إلى بغداد ويبدو أن الأخرس، قد بدر منه ما أثار حفيظة والي الموصل عبد الرحمن باشا الجليلي[2] فخشي الأخرس على نفسه وهاجر إلى بغداد.

وفي "الطراز الأنفس" إشارة إلى أن الوالي داود باشا، قد أمر بحبس الشاعر لسوء موقفه من والي الموصل عبد الرحمن باشا، فاعتذر الأخرس، وأرسل إلى الوالي بيتين من الشعر قال فيهما:

أقَولُ للشَّامِتِ لّمَّا بَدا يَكثُرُ بالتعَّنيفِ والشَّينِ[3]
أليسَ يكفِينِي فخاراً وقد أصبحتُ فِي قيدِ وَزِيرينِ

ووجد الأخرس الفرصة سانحة لمعالجته على نفقة الوالي، فمدحه بقصيدة عرض فيها مبتغاه بقولة:

إنَّ أيَادِيكَ مِنكَ سَابِغةٌ عَلَى قدمٍ فِي سَالِفِ الحِقَبِ
هَذا لِسَانِي يَعُوقُهُ ثِقَلٌ وذَاك عِندِي مِن أعظَمِ النُّوبِ
فَلو تَسبَّبَ فِي مُعَالجَتِي لنَلتُ أَجراً بِذلك السببِ
ولَيسَ لِي حِرفةٌ سِوى أَدبٍ جَمّ ونَظمُ القَرِيضِ والخُطَبِ

فأمر الوالي بإرساله إلى الهند لمعالجته، وأخبره الطبيب في الهند أنه سيجري له عملية جراحية، فإمّا أن ينطلق لسانه، أو يموت فأبى شاعرنا، وقال قولته المشهورة: "لا أبيع كُلّي ببعضي". وعاد إلى بغداد[4]. وكانت هذه العلّة قد سّببت له عُقداً نفسية حادّة، ظهر أثرها في سلوكه وتصرفاته وتقلباته، وحدّة مزاجه وانفعالاته، وكان يقدم قصائده لممدوحيه، مكتوبة بخطه البديع الأنيق، وقد كان خطاطاً بارعاً مجيداً أو يلقيها بعض أصحابه نيابة عنه، وقد ألقى الشاعر الكبير عبد الباقي العمري، قصيدة للأخرس بمدح أبي الثناء في مجلسه. ولا شك في أن سرور الشاعر ونشوته وطربه، إنما يحصل عندما يلقي الشاعر شعره بنفسه، وإن انفعالاته وقسمات وجهه، ونبرات صوته، كل ذلك يضفي على شعره أثراً لا يُنكر، ولا يستطيع إظهار ذلك من ينوب عنه كائناً من كان. وكانت هذه العلّة قد سّببت له عُقداً نفسية حادّة، ظهر أثرها في سلوكه وتصرفاته وتقلباته، وحدّة مزاجه وانفعالاته، وكان يقدم قصائده لممدوحيه، مكتوبة بخطه البديع الأنيق، وقد كان خطاطاً بارعاً مجيداً أو يلقيها بعض أصحابه نيابة عنه، وقد ألقى الشاعر الكبير عبد الباقي العمري، قصيدة للأخرس بمدح أبي الثناء في مجلسه. وبلغ من حب الشاعر لداود باشا، أن مدحه بقصيدة بعد عزله عن بغداد، وبعث بها إليه، ولم يخش من بطش السلطة، وهو يتمني اللحاق به، ومنها قوله:

وإِنِّي عَلَى خَصبِ الزَّمانِ وجَدبِهِ إليكَ وإن شَطَّ المزَارِ لأَهرَعُ[5]
ولو أَنَّنِي وفقَتُ للخيرِ أَصبَحَت نِياقِي بِأَرضِ الرُّومِ تُخدِي وتُسرِعُ

---

[1] مقدمة ديوان عبد الغفار الأخرس، ص7

[2] تولى الحكم في الموصل سنة (1242- 1244) أنظر: الموصل في العهد العثماني ص 502 للدكتور عماد عبد السلام رؤوف، القاهرة، 1975م _ص: 71

[3] أحمد عزت الفاروقي (1986م) الطراز الأنفس في شعر الأخرس، مطبعة الشركة المتبينة، إستنبول، ص429.

[4] الطراز الأنفس، ص: 8

[5] الطراز الأنفس، ص: 251

UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

المديح في شعر الأخرس

ولما كانت أغراض الشعر كثيرة، ومعانيه متشعبة جمة، لا يبلغها الإحصاء، كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالاً، وأطول مدارسةً له وهو المدح، والوصف، والنسيب، والمراثي، والفخر والهجاء.

لغةً: مدحه يمدحه مدحاً: أحسن الثناء عليه، وهو أصل صحيح يدل على وصف المحاسن بكلام جميل[1]. والمدح نقيض الهجاء، وهو الثناء على الممدوح بذكر صفاته وشمائله، يقال: مدحته مدحةً واحدةً ومدحه يمدحه مدحاً، ومدحه هذا قول بعضهم، والصحيح أنه مصدر والمدح اسم [2].

اصطلاحاً: المدح من الأغراض الشعرية القديمة، ويعد من أوسع الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء، ابتداءً من العصر الجاهلي إلى عصرنا هذا، فيعتبر غرضاً أساسياً في الشعر العربي. فهو تعبير عن إعجابِ المادح بصفاتٍ مثاليةٍ، ومزايا إنسانية رفيعة، يتحلى بها الممدوح، فمنه ما كان يصدر عن عاطفةٍ صادقةٍ، ومنه ما كان بُغية التكسب ونيل العطايا، وعلى كلا الحالين حرص الشاعر أن يمدح ممدوحه بما فيه من صفاتٍ. وجاء في العمدة: طلب في المدح، أن يسلك الشاعر فيه طريقة الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية، ويتجنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل [3].

المديح من الأغراض الشعرية التي برع فيها الأخرس ويكاد المدح يشكل معظم قصائده في الديوان إن لم يكن كلها: فهو يمدح علماء عصره ووجهاء القوم والولاة، فشعر الأخرس لا يخلو من مديح رجال السلطة كي يكسب وُدَّهم وينال عطاياهم [4] ومن أوائل قصائده في المدح قصيدة يمدح فيها أبا الثناء الألوسي [5] وهو من علماء عصره وقد تتلمذ على يده الشاعر يقول في مطلعها:

أتذكَرُ أطلالاً تعفَّت وأرسُمًا بِذَاتِ الفَضَاء في الجَرَعِ من أيمى الحِمَى
عرفنا الهوى من أين يأتي لأهله بها والغرام العامريّ من الدِّمى
لئن أصبَحت تِلكَ المنازِلَ باللِّوى قُصَارىَ أمَانِيّ الهَوَى فَطَالما [6]

فالشاعر في هذه الأبيات يسلك مذهب القدماء في مطلع القصيدة وهو ذكر الديار والمنازل فما يفتأ يذكر المنازل وينسب إليها الأحبة ويذكر الصبابة والهوى ويذرف الدمع على أحبةٍ كانوا بها ويتمنى لتلك الديار السقيا ويستوقف الرفيق ليبث لوعته وشجنه ولأُناسٍ كانوا بها بقوله:

فأَصبَحتُ أستَسقِي السَّحَابُ لأجَلِهَا ومَا، بَلّ وبَل السُّحُبَ مِن مِثلهَا ظمأ
خَليليَّ إنَّ الحبَّ ما تَعرِفَانه خَلِيلَيَّ لَو شَاهَدتُمَا لِعَلِمتُمَا
قِفَا بِي على رَسمِ لميَّةِ دارسٍ لِكي تُعلَّما من لوعَتي ما جَهِلتُما
وأن لَم تُساعِدنِي الجفُونُ على البُكَا بآثارِ ميٍّ فاسعِدَاني أنتُما

وهذا مسلك سلكه الشعراء في العصر الجاهلي ومن تأثر بهم في العصور التالية في النسيب والتشبب والوقوف على الأطلال وبيث لوعته ويصف سريان الطيف، والأخرس لا يكتفي ببيت واحدٍ في ذكر الأحباب والديار التشبب والنسيب، ربما يصل في ذلك إلى نصف

---

[1] أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (1991م) مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت، ج5، مادة مدح.

[2] ابن منظور جمال الدين محمد بن منظور (2000م) لسان العرب دار صادر للطباعة، بيروت، مادة مدح.

[3] أبو الحسن ابن رشيق القيرواني (1981م) كتاب العمدة دار النشر بيروت، ط5، ج2، ص 128.

[4] شوقي ضيف (2009م) عصر الدول والأمارات (الأندلس)، ط5، دار المعارف، القاهرة، ص 206

[5] هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبد الله بن محمود بن درويش بن عاشور البغدادي الالوسي. ولد ببغداد ونشأ في بيت علم وفضل، أكمل دراسته على يد أبيه وكان شديد الذكاء كان لا يمل من الدرس والتدريس حتى اعاد لبغداد وجهها العلمي المشرق. ومن أشهر تلاميذه الشاعر عبد الغفار الاخرس وله عدد من التصانيف والكتب أشهر التفسير الكبير (روح المعاني). أنظر الاعلام ج/8 ص 53-54

[6] ديوان الأخرس، ص: 23

UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

القصيدة ثم ينتقل إلى غرضه الآخر، وخير مثال قصيدته هذه في مدح أبا الثناء الألوسي. يسترسل في ذلك إلى أن يصل إلى الأبيات التي يمدح فيها ممدوحه. ويقول مادحاً السيد الألوسي:

وفي النَّاسِ مَن إنْ تَبتَلِيهِ وَجَدتَهُ ... وَقَد كانَ شَهداً فِي المذاقَةِ عَلقَمَا
وإنِّي نظرتُ النَّاسَ نَظرَةَ عَارِفٍ ... وأبصرتُهُم خَلقاً وخُلقاً وميسمَا
فما أبصَرتْ عيني كمحمُودٍ مَاجِداً ... ولا كشِهَابِ الدِّينِ بالعِلمِ مُعَلِّمَا
مِن السَّادةِ الغرِّ الميامِين ينتمِي ... إلى خَيرِ خَلقِ الله فَرَعَاً ومُنتَمَى
ولما تعالى بالفضائِلِ رِفعةٌ ... تَخَيَّلتَه يُبغِي العروج إلى السماء
هُو الصَّارِمُ الماضِي على كلِّ مُلحدٍ ... مِن اللهِ لم يفلَل ولن يَتَثَلَما[7]

يقول الأخرس في هذه الأبيات أنه صاحب بصيرة نافذه يعرف معادن الرجال ومن هو على خلق وهو بمثابة العلامة الدالة على تلك الأخلاق، وبذلك أبصر عالما جليلاً فهو كالشهاب الذي يدل على العلم فصار بذلك اسماً على مسمى ويقصد بذلك أبو الثناء الالوسي ويكنى بأبي شهاب وقد أجاد الأخرس في وصف ممدوحه في بقية القصيدة بوصفه بالكرم والشجاعة والجود والعطاء إضافة الى كونه عالماً حوى علوم الدين كافة وأصبح معيناً للعلم ينهل منه طالبي العلم وحامي حدود دين الله في أبيات جاءت متتاليةٍ محكمة الصياغة والبناء. وهكذا سلك الأخرس في بقية الديوان الذي حفل بقصائدٍ نظمها في المدح فهو يحشد في ممدوحه عدد من الصفات، وهذا ما نراه في قصيدة مدحه للشاعر عبد الباقي العمري ويهنئه بمنصبٍ تقلده، ذاكراً اعتماده على الله في تدبير الأمور، ومن ثمّ محكماً بصيرته التي حُبي بها، وبخبرته وحنكته التي اكتسبها من تجاربه في الحياة، فجعلته يضع الأمور في ميزانها الصحيح، فتتكشف له الحلول، وهي من قصائده الطوال وبها أكثر من ستين بيتاً، وحشد فيها كل الخصال الحميدة للممدوح. يقول:

ومن لوزيرٍ قُلِّدَ الأمرُ رَبَّهُ ... نَظِيرُكَ شيخٍ حنَّكَتْه التَجارُبِ
بَصيرٌ بِتَدبِيرِ الأُمُورِ وعَارِفٍ ... بِمَبدئِهَا ماذا تكونُ العَواقِبِ
أذَلَّ بك الخِطَارُ وهي عَزِيزَةٌ ... فهَانَت عَليهِ في عُلاكَ المصَائِبِ
تُرِيهِ صَبَاحَ الرَّأيِ والأَمرَ مُبهَمٌ ... فتَنجَابَ مِن لَيلِ الخُطُوبِ الغَيَاهِبِ [1]

وأغلب شعر الأخرس يدور حول هذه المناسبات فقد نظم عددٍ من القصائد في مدح أبو شهاب الألوسي وغيره من علماء ووزراء وولاة تلك الفترة، إما أن يكون مهنئاً بمنصبٍ، أو مباركاً لعيدٍ، أو استشفاءٍ لمرضٍ. وهو ما نظمه في السيد أحمد الرفاعي فيقول:

إلى إحسَان مَولَانَا الرِّفَاعِي ... بِكَشكُولِ الرَّجاءِ مَددتُ باعِي
هُو القُطبُ الَّذِي لا قُطبَ يُدعَى ... سِواهُ فِي الأَنامِ بِلا نزاعِ
عَرِيضُ الجَاهِ ذُو قَدَرٍ كرِيمٍ ... طَوِيل البَاعِ، بَل رَحِب الذِّرَاعِ
تَولَّدَ مِن رسُولِ اللهِ شِبلٌ ... بِه دَانتَ لَهُ كُلُّ السِّبَاعِ
وقَبّل كَفَّ وَالِدِهُ جهَاراً ... غَدت بِالنُّورِ بَادِيَة الشُّعَاعِ

أن ما يميز الأخرس في ديوانه أنه يميل دائماً الى التطويل في شعره حتى يصل الى مبتغاه فمعظم قصائده وخاصة تلك التي نظمها في المدح تحوي على قوة العبارة الشعرية ورصانة الألفاظ وجزالة الأسلوب حتى يصل الى الغرض الذي من أجله نُظِمت القصيدة وهو بذلك يميل الى الإسهاب والتطويل معتمداً على خياله في انتقاء الألفاظ والكلمات فنجد أن معظم شعره يدور حول التهاني والمناسبات على هذا النحو سار في نظم قصائده. يقول في مدح الوزير علي رضا باشا [4] فيقول:

ألا إنَّ هذا الفُؤادَ اِضطَرَمْ ... فَهَلْ مِن خُمُودٍ لِهَذا الضَّرَمْ
وفي كلِّ جارحةٍ لوعةٌ ... تَثُورَ وفي كُلِّ عُضوٍ أَلَمْ

[1] هو الشاعر الشهير عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري الموصلي ولد في الموصل سنة 1203هـ وبها نشأ وأخذ من علمائها الأعلام. حتى نبغ في فنون الأدب وبرع في النظم والنثر، وصار شيخ الأدباء في عصره كان ذكياً بارعاً له قريحة وقادة وقدرة فائقة على القريض وكان ينظم بسرعة حتى سمي (الفوري) لأنه ينشد الشعر من فوره انظر تاريخ الأدب العربي لعزاوي ج/2 ص324 وانظر الأعلام ج/4 ص45

UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

وهو يبدأ قصائده بالشوق والصبابة والهوى وذكر الأحبة والشجن، ثم ينتقل إلى غرضه الأساسي الذي من أجله نظم قصيدته، وفي مدح على رضا يقول:

إلى قَائِدِ عَسكَر المسلِمِينَ ومِقدَامِهِم فِي الحُروبِ الدَّهِم
عَليُّ الرِّضَا مَشرِقيُّ القَضَا وغَيثُ العَطاءِ غِيَاث الأُمَمِ
قَرِيبُ النَّوالِ مُجيب السُّؤَالِ مَنيع المَنَالِ رَفيعُ الهِمَمِ[8]

فيصفه بأنه غيث يقضي حوائج الأمم التي تغاث به، كريم العطاء، سريع استجابة دعوة المحتاجين، مرفوع الهمة باسل في وجه أعدائه، ويسير على هذا النهج ممجداً ممدوحه مشيراً إلى نفسه في آخر أبيات القصيدة بقوله:

لَقَد شَمُلتَنَا لَهُ نِعمةٌ وقَدَ أَوجَبَ اللهُ شُكرَ النِّعمِ
فَيَا لَيتَنِي كُنتَ فِي ظِلِّهِ وكُنتَ أكُون كبعَضِ الخَدَمِ
أفَوزُ بِبَابِ عَليّ الجَنَابِ فَأروِي مَحَاسِنُ تِلكَ الشِّيَمِ
وأنْشِدُهُ الشِّعرَ عن أحَرسٍ يُتَرجِمُ عَنهُ لِسَان القَلَمِ

يصف مجيئ علي باشا الإحساء مشيراً بأن هنالك نعماً قد خصه الله بها من الرشد والاستفادة من العلوم التى تعلّمها وأفاد بها البلاد لقوله:

ولَعمري ليسَ بالمغبُونِ مَن يشَّتَرِي مِنَك الرِّضَا بالرُّوحِ نَقدا
لِمَزايَا خَصَّك اللهُ بِهَا أكثَرَ النَّاسُ لها شُكراً وحمَدا
يا مُشِيراً بِالَّذِي يُرشدُنَا إنَّمَا أَنتَ بِطُرقِ الرُّشدِ أهدَى
كُلُّ ما جِئتُ به مُبتكَرٌ مِن عُمُومِ النَّفعِ فِعلاً يُتَعدَّى

ويختم تلك القصيدة بأبياتٍ قويةٍ رصينةٍ، ممجداً فيها ممدوحه حاشداً في تلك الأبيات مجموعة من الصفات الحميدة والخصال المجيدة فشبهه بالدنيا في الإقبال والدهر في الإعراض وجعله نعمة من نعم الله على الدنيا، وأضافت التورية بعداً وجمالاً آخر، في ذكره لأفعال الممدوح، (فعلاً يتعدى) ولا يقصد به الأفعال اللازمة والمتعدية، بل عموم الفائدة من أفعال الممدوح. وعلى هذا النحو سار الشاعر في مدح رجالات عصره وتفنن في مدحهم وأفرد لهم حيزاً كبيراً في أشعاره حتى تكاد تكون معظم قصائده في المدح ولم يعط بقية الأغراض الشعرية الأخرى حيزاً من شعره فقد كان مقلاً بأغراضٍ أخرى مثل الفخر والرثاء والهجاء، والاعتذار وربما بَعُد عن ذلك بحساسيته تجاه تلك الأغراض ووجَّه جُلّ شعره على قرنائه وأبناء عصره من قضاة، وولاة، وشعراء، وعلماء. والأخرس في مدحه يخوض في فلك المعاني التقليدية التي أُعجب بها العربي في كل العصور، ورآها مقياساً ثابتاً لا يتغير في كل من كان أهلاً للمديح، وحرص على أن تكون صفات ممدوحيه متناسبة ومتلائمة مع مكانتهم الاجتماعية أو الدينية أو السياسية، والفطرة النفسية المرتبطة بالبيئة والجذور التي انحدر أو انتمى إليها الممدوح، فإلى جانب المعاني المشتركة العامة، نجد المعاني الخاصة التي تناسب الحاكم أو العالم أو الشاعر وهكذا. وقد وصل الحد بعبد الغفَّار الأخرس في مدحه لأمير عمان سالم بن ثويني[2] وتهنئته بتوليه الإمارة بعد قتله لأبيه، أن يبرر له قتله أباه بأن ذلك قضاء الله، وأنه ليس كما ادَّعوا. فقد وافاه أجله فمات، ويسوغ فعلته بأنه كان من عُبَّادِ الأصنام على من عاب ذلك عليه ورماه بالعقوق من الناس والشعراء، ويدافع عنه فهو اجتهد ويحق له الاجتهاد ولغيره التقليد ...ولست أدري كيف بنى الأخرس دفاعه؟ وكيف تسوغ لهذا العاق فعلته؟! مع أنه قتله طمعاً في الملك، ولم يمكث في حكمه سوى سنتين فقط، إذ ثارت عليه القبائل وهرب، هكذا نلاحظ معاناة الشعر من الاستخدام أو الاستتباع في علاقته بالسلطة، وبهذا دخل في باب التكسُّب الذي جرّ على الشعر والشع راء الكثير من الاحتقار وهبوط الأداء، به ذا المعنى تنقل السياسة الشعر من قمته للحضيض، فهل يفعل المتكسب هكذا في الشاعر؟! أم أنه يتقي بطشه؟؟ أم الاثنين معاً؟ لعلها هذه. وهي قصيدة طويلة منها[10]:

---

[1] ديوان عبد الغفار الأخرس، ص 83.

[2] ديوان الأخرس ص:117

[10] هو سالم بن سعيد بن سلطان أمير عمان ومسقط، كان يعين أباه في الأمور في صباه، ثم طمع بالحكم فاغتال أباه في ميناء صحار عام 1865م، واستولى على الحكم وأخبر أمراء القبائل أنه قتله لظلمه، فبايعوه ثم انقلبت القبائل عليه بعد سنتين من حكمه فاستعان عليهم بالبرتغاليين في الخليج العربي وخُلع عام 1285هـ، واضطر إلى الهرب إلى الهند عام 1868م، وتوفي فيها عام 1290هـ / 1873م، ينظر: الأعلام: 2_66، 89

UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

أُنظُر إلى الأشرافِ كَيفَ تَسودُ وإلى أُباةِ الضيمِ أين تُرِيدُ
إذ يُدَعى بالمِلكِ من هُوَ أَهلُهُ والحَزمُ يُقضَي والسُّيُوفُ شُهُودُ
يَومٌ ثَوَى فيهِ (ثويني) فِي الثَّرَى يومٌ (بِسَالِم) للبَرِيَّةِ عِيدُ
ما للذي عَبدَ الصُّخورَ من الَّذِي عَبَدَ الإلهَ ودينُهُ التَّوحِيدُ
قُل للَّذي ذَمَّ الإمامَ بشِعرِهِ قد فاتَكَ المطلُوبُ والمقصودُ
ولقد عُميتَ عَن الهُدَى فِيَمن لَهُ نَظَرٌ بغَاياتِ الأُمُورِ حديدُ
مَن لامَ (سَالِمٌ) في أبِيهِ فَلومُه حمقٌ لِعمرِي ما عليهِ مَزِيدُ
مَا عَقَّ والَدَهُ ولا صَدِقَ الَّذِي نَسَبَ العُقُوقَ إِليهِ وَهو جَحودُ
وافى (ثويني) في الفِرَاشِ حِمَامَهُ وأتَى عَليهِ يَومُه الموعودُ
هذا قَضَاءُ اللهِ جَلَّ جَلَالُه لا والدٌ يَبقَى ولا مَولُودُ
رأى رأيَّ فيه الإصابةُ (سالم) باللهِ أقسمُ إنَّه لسديدُ
فَلَهُ يَصَّحُ الاِجتِهَادُ بعِلمِهِ فِي شأنِهِ ولِغَيرِهِ التَّقلِيدُ[11]

رغم أن الأخرس يتكسب بالشعر إلَّا أنه تجدر الإشارة إلى اطالته في موضوع القصيدة، ويأتي بغرض المدح فيها لممدوحه في آخر أبياتها، حتى أنه إذا أسقطت هذه الأبيات لا يختل موضوع القصيدة، والذي تكون بدايته في غرضٍ آخر غير المديح، وكان ذلك حياءً من التكسب بهذه الطريقة، ومع ذلك نجده في مدحه للعلامة أبي الثناء الألوسي يطلب منه عباءة للشتاء دون حرجٍ في الأبيات الآتية إذ يقول:

بقيت أبَا الثناء مَدَى اللَّيالِي عَلَىَ الدَّاعِي لَكُم فَضلُ اليَدينِ
يَحُولُ نَداكَ ما بَينَ الرزايا إِذاَ هَطَلَت يَدَاكَ بِهِ وبَيْنِي
تُوَاعِدُنِي بِكَ الآمالُ وَعداً رَأَيتُ نجَازَه مِن غَيرِ مَينِ
تَجُودُ على مُحِبِّك كُلَّ عَامٍ بلبسي عُباءةً وتقرّ عيني[12]

وهكذا يظهر ذكاء الأخرس في المدح، وهو ينتقي المعاني بما يتناسب مع البيئة، والطبيعة النفسية لأهلها، أو للممدوح في أي بقعةٍ كان، بما يعرفه من أصله ونسبه فضلاً عن أفعاله وشيمه، فيلبس ممدوحه الثوب المناسب، ويوشيه بما يليق بمكانته[13].

الخاتمة

استمر المدح ولم تجف معانيه في أي عصرٍ من عصور الأدب العربي، حتى العصرين المملوكي والعثماني، رغم شكوى الشعراء من كساد سوق الشعر. فشعر المدح شكَّل معظم قصائد الأخرس، سالكاً في ذلك مذهب القدماء، فمطالعه تنوَّعت ما بين وقوفٍ على الأطلال وغزلٍ ووصفٍ للخمر. فمدح علماء عصره بوصف بحر عِلمِهم ونصرتهم للدين، وكان لاتصاله برجال السُلطة دوراً كبيراً في مدح الولاة ووجهاء المجتمع. لتعزيز مكانته من جهة، ولنيل عطاياهم من جهةٍ أخرى، إذ إن الشعر بضاعته التي يتكسب بها. لذلك اهتمَّ هذا البحث على دراسة هذا الأغراض دراسة فنيَّة موجزة.

النتائج

1/ إنَّ الشاعر قد طرق معظم الأغراض الشعريَّة المعروفة، كالمديح، والرثاء، والغزل، والوصف، ورغم أنَّه كان مُقلاً في الهجاء الذي لم يتطرق إليه إلَّا من خلال قصيدتين، وبيتين من الشعر، فيمكننا أن نقول إنه من جملة ما طرق من الأغراض الشعرية.

[1] الطرّاز الأنفس، ص: 129
[12] ديوان الأخرس، ص :418
[3] شوقي ضيف (2008م) العصر العباسي الأول (غرض المديح) ، ط19 ، دار المعارف، القاهرة، ص:195

UBJSR, Issue (36) Volume (1) March 2023- Arab Impact Factor, 2022: (AIF: 0.96)
Bakht Alruda University Quarterly Refereed Scientific Journal, ISSN: 1858-6139, Online
Received: 12/02/2023
Accepted: 30/03/2023

2/ تميَّز أغلب شعره في المديح، وهي سمة طبعت شعر القرن التاسع عشر، ولاسيما في مديح الأسر الموسرة (آل الألوسي)، وهو في هذا ينحو منحى شعراء عصره في التزلف، من أجل الحصول على عطايا ممدوحيهم، وربما يعود سبب ذلك ـ كما ذكرنا في البحث ـ إلى الحالة المعيشية المزرية التي كان عليها شعراء القرن التاسع عشر عامة، وشاعرنا على وجه الخصوص، وهو ما دفعه إلى مدحهم لتحسين أحواله.

التوصيات

1/ أن يولي هذا الشاعر مزيداً من الدراسات اللغوية، والتمثيلية، والصور الشعرية، دراسة أكثر تفصيلاً، للكشف عن تجديده في الشعر.

2/ إجراء دراسات أخرى مشابهة عن شعراء آخرين وعمل مقاربة ومقارنة شعرية عن المديح في الشعر.

المصادر والمراجع

1/ عماد عبد السلام رؤوف (1975م) الموصل في العهد العثماني، القاهرة.
2/ ابن منظور جمال الدين محمد بن منظور (2000م) لسان العرب، دار صادر للطباعة، بيروت، مادة مدح.
3/ أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (1991م)مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ج5.
4/ خير الدين الزركلي (1980م) الأعلام، الطبعة الخامسة.
5/ أحمد عزت الفاروقي(1886م) الطراز الأنفس في شعر الأخرس، مطبعة الشركة المتبينة، استانبول.
6/ تاريخ الأدب العربي في العراق(1960م) مطبعة المجمع العلمي، العراق، ج 2
7/ ديوان عبد الغفار الأخرس (1986) تحقيق وليد الأعظمي، عالم الكتب للطباعة والنشر: بيروت.
8/ شوقي ضيف(2008م) غرض المديح، العصر العباسي الأول، ط19، دار المعارف، القاهرة
9/ شوقي ضيف (د.ت) عصر الدول والأمارات (الأندلس)، ط5، دار المعارف، القاهرة
10/ أبو الحسن ابن رشيق القيرواني (1981م)كتاب العمدة: دار النشر بيروت، ط5، ج2